١ ـ نظرة على القصص السابقة

قرأتم قصة سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف ، وقرأتم قصة سيدنا نوح وسيدنا هود وسيدنا صالح ، قرأتم قصة سيدنا موسى في شيء من التفصيل والتطويل ، قرأتم كل ذلك بشوق ورغبة ، وإجلال وتقدير ، وحلت في نفوسكم وقلوبكم محل القصص الحبيبة الأثيرة ، ووعتها ذاكرتكم ، وذلت بها ألسنتكم ، وقد رآكم الناس تحكونها لإخوتكم الصغار ،

وتردّدونها للأبوين ، والإخوة الكبار ، وأنتم تتذوقونها ، وقد تتحمّسون في حكايتها .

٢ ـ قصة صراع بين الحق والباطل

ولا غرابة ؛ فإنها قصص شائقة مثيرة ، وإنّها قصة صراع بين الحق والباطل وبين العلم والجهل وبين النور والظلام ، وبين الإنسانية والوحشية ، وبين الجزم واليقين ، والظن والتخمين .

ثم إنها قصة انتصار للحق على الباطل ، والعلم على الجهل ، والضعيف على القوي ، والقليل على الكثير ، قصة فيها علم وحكمة وموعظة وذكرى ، وصدق الله العظيم :
« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ،

ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيءٍ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

قصة سيدنا شعيب عليه السلام

وليس ما حكيناه لكم من قصص النبيين ، هو كل ما حكاه الله في القرآن من قصصهم وحكاياتهم ، ففي القرآن قصص غير هذه القصص .

٣ ـ وإلى مدين أخاهم شعيباً

فيه قصة نبي الله شعيب الذي أرسله الله إلى مدين وأصحاب الأيكة ، وهم أصحاب تجارة وسلع ، فقد كانوا على الجادة التّجارية الكبيرة بين اليمن والشام

وبين العراق ومصر ، على ساحل البحر الأحمر .

كانوا يشركون بالله غيره ، كما كانت أمم الأنبياء في كل عصر ، وكانوا ـ زيادة إلى ذلك ـ ينقصون المكيال والميزان ، ويطففون في الكيل ، ويتعرضون للقوافل ، فيتوعّدونها ويخيفونها ، ويعيثون في الأرض فساداً ، شأن الأغنياء الأقوياء الذين لا يرجون حساباً ولا يخشون عذاباً .

فبعث الله إليهم رسوله شعيباً يدعوهم وينذرهم ، ويقول لهم : « يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَٰقَوْمِ

أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيْزَانَ بالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْ فِي الْأَرْض مُفْسِدِيْنَ » .

٤ ـ دعوة شعيب

ويبسط لهم في الكلام ويحل عقدة في نفسهم ، وهي عقدة حب المال والزيادة . فيقول :

إن ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالظلم والخيانة ، وإذا نظرتم في حياتكم وفي حياة هؤلاء الذين أثْرَوْا وجمعوا الأموال ، وجدتم أنّ ما اكتسبوه عن طريق التطفيف والبخس والخيانة ،

كان مصيره إلى التلف والضياع أو الفساد والبلاء ، فسرق أو نهب أو أنفق في غير ما يرضي الله أو سلط عليه من أتلفه وعبث به ، والقليل الذي ينفع خير من الكثير الذي لا ينفع : « قُلْ : لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » .

ونصيحتي لكم خالصة مخلصة ، والله هو الرقيب عليكم وحده ، يقول في رفق وحكمة وعن علم وبصيرة :

« بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » .

٥ ـ أب رحيم ومعلم حكيم

ويتنوّع لهم في الخطاب ، ويتفنّن في

النصيحة ، شأن الأب الرحيم والمعلم الحكيم ، فيقول :

« يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * » .

٦ ـ جواب قومه

وقد دَقَّق أذكياؤهم في تفسير هذه الدعوة وتعليلها ، وقالوا في تيه وزهو ،

كَأنهم اكتشفوا سرّاً ، أو فكوا لغزةً :

« قَالُوا : يٰشُعَيْبُ أَصَلوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ابآؤُنَا أَوْ أَنْ نَّفْعَلَ في أَمْوَالِنَا مَا نَشٰؤُا إِنَّكَ لَأنْتَ الْحَلِيْمُ الرَّشِيْدُ * » .

٧ ـ شعيب يشرح دعوته

وتلطف لهم شعيب ، فلم يقس ولم يغضب ، وأفهمهم أنه ما حمله على هذه الدعوة والنصيحة بعد صمت طويل وعدم تعرض لما كانوا عليه من أخلاق فاسدة وتصرفات جائرة ، إلا ما أكرمه الله به أخيراً : بالنبوة والوحي وما شرح له صدره وآتاه نوراً من عنده .

وأنه لا يحمله على ذلك الحسد ، فقد أغناه الله ورزقه حلالاً طيباً ، وأنه بذلك سعيد ، هنيء النفس ، رخي البال ، شاكر لله تعالى بالقلب واللسان .

ثم أنّه لا ينهاهم عن أمر ويرتكبه ، ويمنعهم من شيء ويأتيه ، وأنّه ليس من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، ولا من الذين يقولون ما لا يفعلون ، إنما يريد إصلاحهم وإسعادهم وإنقاذهم من العذاب الذي يحلِّق على رؤوسهم وإنّ الفضل كله يرجع إلى الله تعالى وعليه اعتماده .

« قَالَ : يٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيْدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهٰكُمْ عَنْهُ

إِنْ أُرِيْدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ * » .

٨ ـ ما نفقه كثيراً مما تقول

وتجاهل القوم ما أراده شعيب كأنه كان يتكلم معهم في لغة أجنبية مع أنه ابن البلد وأخو القوم وكأنه كان غير مبين في كلامه غير مفصح مع أنه من أبلغهم كلاماً وأنصعهم بياناً ، وهكذا يقول الناس إذا كبرت عليهم النصيحة وشق عليهم العمل .

٩ ـ شعيب يتعجب من قومه

وتعلّلوا بضعفه ووحدته وأنّه لولا عشيرته وقرابتهم له لرجموه بالحجارة

وتخلصوا منه ، وقد استنكر ذلك شعيب وتعجب من أن يكون الله العزيز القادر ، والقوي القاهر ، أهون عليهم من عشيرة هي عرضة للأمراض والهلاك والضعف والعجز .

« قَالُوا : يٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيْراً مِّمَّا تَقُولُ وإِنَّا لَنَرٰكَ فِيْنَا ضَعِيْفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰكَ وَمَا اَنْتَ عَلَيْنَا بعزيز *. قَالَ : يٰقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوْهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً اِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيْطٌ * » .

١٠ ـ السهم الأخير

ولما انقطعت حجّتهم أطلقوا السهم الأخير الذي أطلقه المتكبرون من كل أمة

على نبيهم وأتباعه :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يٰشُعَيْبُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا اَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا » .

١١ ـ حجة قاطعة

فكان جوابه جواب فخور بدينه غيور على عقيدته وضميره :

« قَالَ : أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِيْنَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّٰنَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا اَنْ نَّعُودَ فِيْهَا اِلَّا اَنْ يَّشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَاَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِيْنَ * » .

١٢ ـ بل قالوا مثل ما قال الأولون

فلم ينفعهم ذلك ، بل قالوا مثلما قال الأولون : « قَالُوا : اِنَّمَا اَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِيْنَ * وَمَا اَنْتَ اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَاِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِيْنَ * فَاَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ * » .

١٣ ـ عاقبة أمة كذبت نبيّها

وكانت العاقبة واحدة ، عاقبة كل أمة كذبت نبيها وكفرت بنعمة الله : « فَاَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَاَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جٰثِمِيْنَ * اَلَّذِيْنَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَاَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيْهَا اَلَّذِيْنَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخٰسِرِيْنَ * » .

١٤ ـ بلغ الرسالة وأدى الأمانة

وكان شأن شعيب ، شأن كل نبي بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة وأقام الحجة :

« فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ : يٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسٰلٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسٰى عَلَى قَوْمٍ كٰفِرِينَ * » .

قصّة سيِّدنا داؤد ، وسيِّدنا سُلَيْمَان عليهما السلام

ولم يقتصر القرآن على ذكر أيام الله وما لقيه الأنبياء والرسل من تكذيب وسخرية وإهانة ومطاردة من الأمم التي بُعثوا فيها ، وما لقيت هذه الأمم من عقوبة وعذاب وهلاك ودمار لتكذيبها للرسل واستهزائها بهم وكيدها لهم وهمّها بقتلهم ، كما مرّ بكم في قصص النبيين .

١ ـ القرآن يتحدث عن آلاء الله

بل تحدث القرآن كثيراً عن آلاء الله ،

وحكى في بسط أحياناً وفي اختصار أحياناً عن نعم كثيرة ، أنعم بها على كثير من الأنبياء ، منهم داؤد وسليمان ، ومنهم أيوب ويونس ، ومنهم زكريا ويحيى .

فأما داؤد وسليمان فقد مكّن الله لهما في الأرض ، ووسّع لهما في الملك ، ومدّ لهما في العلم ، وعلمهما كثيراً ممّا جهله الناس ، وسخّر لهما الأقوياء والعتاة ، وما لا ينقاد من الحيوانات والجمادات ، فقال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ عِلْماً وَقَالا : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلٰى كَثِيْرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ * وَوَرِثَ سُلَيْمٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ : يٰـأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ

وَأُوتِيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذَا لَهُوَ الفَضْلُ الْمُبِيْنُ * » .

٢ ـ نعمة الله على داؤد

فأما داؤد فقد سخّر الله له الجبال والطير تتجاوب معه في الدعاء والتسبيح ، وعلّمه صنعة الدروع ، وألان له الحديد . « وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاؤدَ مِنَّا فَضْلاً يٰجبَالُ أَوِّبي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيْدَ * أَنِ اعْمَلْ سٰبِغٰتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بمَا تَعْمَلُونَ بَصِيْرٌ * » . ويقول : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاؤدَ الْجبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فٰعِلِيْنَ * وَعَلَّمْنٰهُ صَنْعَةَ لَبُوْسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شٰاكِرُونَ * » .

٣ ـ شكره على هذه النعمة

وكان داؤد مع هذا الملك الواسع واليد الحاذقة القوية كان عبداً خاشعاً أوَّاباً ، دَائمَ الذكر ، طويل الدعاء والتسبيح ، حاكماً مقسطاً ، يحكم بين الناس بالحق ولا يحابي ، يقول الله تعالى « يدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الْأَرْض فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بالْحَقِّ وَلَا تَتَّبع الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ إِنَّ الَّذِيْنَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيْل اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ بمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * » .

٤ ـ نعمة الله على سليمان

فأما سليمان فقد سخر الله له الرياح

تجري بأمره وتحمله من مكان إلى مكان ، فيصل إليه في أقرب وقت وأسرع زمان وسخّر له الأقوياء والحاذقين من الجن والماردين مِنَ الشياطين ، ينفِّذون أوامره ويكملون مشاريعه العمرانية والبنائية العملاقة .

« وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ * ومن الشَّيَٰطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ * » .

« وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ

وَمَنْ يَّزِغْ مِنْهُمْ عَنْ اَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيْرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِيْبَ وَتَمَاثِيْلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُوْرٍ رّٰسِيٰتٍ اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيْلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ * » .

٥ ـ فقه دقيق وعلم عميق

وقد تجلى ذكاؤه وقدرته على الحكم الصحيح في قضية رُفعت إلى والده العظيم ، فكان لقوم كرم قد أنبتتْ عناقيده ، فدخلت فيه غنم لقوم فأفسدته ، فقضى داؤد بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم

عليه كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كانَ دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها .

وخصّه الله بفقه دقيق وعلم عميق فقال :

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَٰنِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِيْنَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَّعِلْماً » .

٦ ـ سليمان يعرف لغة الطير والحيوان

وقصّ القرآن قصة حكيمة ممتعة تجلّى فيها تيقّظ سليمان في تدبير مملكته

ورهبة سلطانه ، كيف جمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة وبين الملك والتمكين والنبوة والرسالة في الدين ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان ، وجمع جنوده من الجن والإنس والطير ذات مرة ، وركب فيهم في أبهة وعظمة وكانوا على نظام كامل وكانوا في قيادة رؤسائهم ، فمرّ سليمان على وادي النمل ، فخافت نملة على قَبِيلتها أن تحطمها الخيول بحذافيرها ولا يَشعر بذلك سليمان ولا جنوده ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان ، ولم يأخذه التيه ولا الزهو بأنه نبي من أنبياء الله بل حمله ذلك على حمد الله تعالى وشكر نعمته ، والدعاء

والتوفيق للعمل الصالح والانخراط في سلك عباد الله الصالحين .

٧ ـ قصة هدهد

وكان الهدهد رائده وعينه يدلّه على مواضع المياه ، ومنازل الجيش ، فلم يجده ، فأنكرَ ذلك وتوعده ، فغاب زماناً يسيراً ثم جاء ، فقال لسليمان : اطّلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك وجئتك بخبر صدق عن سبأ وملكتهم : لهم ملك عظيم ، ودولة واسعة ، وقد وجدتهم على هذا العقل والكياسة ، والملك والرياسة ، أصحاب سفاهة وجهالة . وهم يسجدون للشمس من دون الله ،

ولا يفقهون ذلك ، ولا يهتدون إلى عبادة الله وحده .

٨ ـ سليمان يدعو ملكة سبأ إلى دينه

وشق على نبي الله أن يكون بجوار مملكته ملك وأمة لا يعرفها ولم تبلغها دعوته ، ولا تزال تعبد الشمس ، وثارت فيه الحمية الدينية النبوية ، ورأى من الصواب أن يكتب إلى ملكتها وحاكمتها المشركة ويدعوها إلى الإسلام ، والطاعة والاستسلام ، قبل أن يزحف على بلادها بجنوده القاهرة ، فكتب إليها كتاباً بليغاً ودعاها فيه إلى الإسلام والاستسلام .

والكتاب يجمع بين الرقة والصرامة وتواضع

الأنبياء وغيرة الملوك .

٩ ـ الملكة تستشير أركان دولتها

فقد كان سليمان جامعاً بينهما ، وكانت المرأة التي تحكم هذه البلاد عاقلة غير متسرّعة في الحكم ، عندها تجارب واسعة من سير الملوك وأخبار الفاتحين ، وإنما خانها عقلها في معرفة الإله وعبادته فلم تأخذها حمية الملوك ، ولم تستبدّ بالرأي ، فأطْلَعَتْ أهلَ الرأي من أركان دولتها على هذا الكتاب الذي لم يكن كسائر الكتب ، إنه كتاب من أعظم الملوك في زمانها ومن نبي داعٍ إلى الله .

ولما بدأ أركان دولتها يدلون بقوتهم

وكثرة جيوشهم إرضاءً وتملقاً ، شأن جلساء الملوك والحكام في كل زمان ومكان ، لم تقبل مقالتهم ولم توافقهم عليها ، بل حذّرَتْهم من سوء العاقبة وذكّرتْهم بسيرة الملوك الفاتحين في الأمم المفتوحة ومصيرها بعد الهزيمة والانكسار ، وقالت : سيكون هذا شأن بلادنا وأمتنا ، وقالت لهم : إنني سأرسل إلى سليمان بهدايا وطرف فأمتحنه بها ، فإن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

١٠ ــ هدية مساومة

وبعثت إليه بهدية عظيمة لائقة بالملوك ، فلما وصلت إلى سليمان أعرض

عنها وزهد فيها وقال : أتساومونني بمال لأترككم على شرككم وملككم ، والذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، والأمر جدّ ليس بهزل ، والقضية قضية دعوة وطاعة ، ليست قضية مساومة ، وتوعّدهم بقصده لهم وزحفه على ملكهم .

١١ ـ الملكة تأتي خاضعةً

فلما رجعت هذه « البعثة » إلى ملكة سبأ ، وحكت لها القصة ، سمعت وأطاعت هي وقومها وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ، ولما تحقق سليمان ـ عليه السلام ـ قدومهم إليه فرح بذلك وحمد

الله ، وأراد أن يريها آية من آيات الله ، ليكون ذلك أدلّ على قدرة الله ونعمه على سليمان ، فأراد أن يحضر عرشها الّذي وكّلت به رجالاً أقوياء أمناء ، فطلب من ملئه أن يأتوه بعرشها قبل وصول هذا الموكب العظيم .

وقد تحقق ما أراد سليمان في أقرب وقت وكان معجزةً ، وأمر به سليمان فغُيِّرَ بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، وإن التبس عليها الأمر كان دليلاً على قصور نظرها في أمور أدق منه وأبعد منالاً .

١٢ ـ قصر عظيم من زجاج

وأمر سليمان البنّائين من الإنس والجنّ

فبنوا لها قصراً عظيماً من زجاج وأجروا
تحته الماء ، فالذي لا يعرف أمره يحسب
أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشي
وبين الماء ، وكان المؤكّد أن الملكة تتوهّمه
ماءً فتكشف عن ساقيها ، وهنالك تتبيّن
الخطأ وتدرك قصور نظرها وانخداعها
بالمظاهر ، وكانت هي وقومها يسجدون
للشمس لأنها أكبر مظهر للنور والحياة ،
التي هي من صفات الله تعالى ، وهنالك
ينكشف الغطاء عن عينها فتعرف أنّها كما
أخطأت في معاملة الزجاج معاملة الماء
فكشفت عن ساقيها كذلك أخطأت في
معاملة الشمس معاملة الخالق فسجدت
لها وعبدتها ، وكان ذلك أبلغ من مئة

خطبة وألف دليل .

١٣ ـ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين

وهكذا كان ، فقد تورطت رغم دهائها وذكائها في هذا الخطأ الفاحش ، وتوهّمت الزجاجة ماءً رقراقاً يسيل ويموج ، فكشفت عن ساقيها ، وأرادت أن تخوضه .

هنالك نَبَّهَهَا نبي الله سليمان على خطئها ، وقال : إنه صرحٌ ممرّد من قوارير ، وانكشف الغطاء عن عينها ، وعرفت جهلها في قياس المظهر على الظاهر وعبادة الشمس والسجود لها ، وابتدرت تقول : ربّ إني ظلمت نفسي

وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين .

١٤ ـ القرآن يحكي قصة سليمان

واقرؤوا هذه القصة الشائقة الممتعة في القرآن ، يقول الله تعالى :

« وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَإٍ يَّقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَّلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَنُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ

السَّبِيْلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * اَلَّا يَسْجُدُوا
لِلّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوٰتِ
وَالاَرْض وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ *
اَللّهُ لَا اِلٰـهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْش الْعَظِيْم *
قَالَ سَنَنْظُرُ اَصَدَقْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْكٰذِبِيْنَ *
اِذْهَبْ بِكِتٰبِي هذا فَاَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ
عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ :
يـٰأَيُّهَا الْمَلأُ اِنِّي اُلْقِيَ اِلَيَّ كِتٰبٌ كَرِيْمٌ *
إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَاِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰن
الرَّحِيْم * اَلَّا تَعْلُوْا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِيْنَ *
قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلأُ اَفْتُوْنِي فِي اَمْرِيْ
مَا كُنْتُ قَاطِعَةً اَمْراً حَتَّى تَشْهَدُوْنِ *
قَالُوا : نَحْنُ اُوْلُوْ قُوَّةٍ وَّاُوْلُو بَأْس شَدِيْدٍ *
وَّالْاَمْرُ اِلَيْكِ فَانْظُرِيْ مَاذَا تَأْمُرِيْنَ *

قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتٰبِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ

مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ : هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيْمٌ * قَالَ : نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِيْ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِيْنَ لَا يَهْتَدُوْنَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيْلَ أَهٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِيْنَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِيْنَ * قِيْلَ لَهَا : ادْخُلِيْ الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيْرَ * قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِيْ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمٰنَ للهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ * » .

وهذا نبي الله سليمان وقد رأيتم مواقفه في الدعوة إلى الله وإلى التوحيد ، وحكمته وفقهه وغيرته على دينه وعقيدته .

١٥ ـ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا

نسب إليه اليهود ما لا يليق بمؤمن موحّد شرح الله صدره للإيمان ، فضلاً عن نبي مرسل آتاه الله الحكمة ، وأكرمه بالنبوة ، وشرّفه بالخلافة ، فنسبوا إليه السحر والكفر والمداهنة للشرك والاضطراب في أمر التوحيد بسبب أزواجه ، فَبرَّأه الله من كل ذلك فقال :

« وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَٰطِينَ

كَفَرُوا يُعَلِّمُوْنَ النَّاس السِّحْرَ » . وقَالَ : « وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمٰنَ نِعْمَ الْعَبْــدُ اِنَّهُ اَوَّابٌ * » . وقال : « وَاِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَاٰبٍ * » .

قصة سيِّدنا أيّوب وسيِّدنا يونس عليهما السلام

١ ـ قصة أيوب نمط آخر من القصص

وقصة أيوب في القرآن نمط آخر من القصص ، ومظهر آخر من مظاهر نعم الله على عباده المؤمنين ، الصابرين الشاكرين ، والأنبياء المحبوبين ؛ فقد كان له من الدوّابّ والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد مرضية ، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره ، ثم ابتلي في جسده فلم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر

بهما الله عز وجلّ ، وأفرد في ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه ، سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، واحتاجت أيضاً فصارت تخدم الناس من أجله[1] .

٢ ـ صبر أيوب

وكان رغم كل ذلك صابراً شاكراً يلهج لسانه بالذكر والشكر ، لا يشكو ، ولا يتعتّب ، ولا يتذمّر ، ولا يغضب ، ودام على ذلك سنين طوالاً .

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره

٣ ـ محنة ومنحة

ولما تمّ ما أراده الله له من ابتلاء ، وما أراد به من تكميل ، ورفع درجات ، والرضا بالقضاء ، ألهمه الدعاء المستجاب الذي تجلى فيه عجزه ، وبؤسه ، وأن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأنّه القادر على كل شيء ، وعافاه الله في بدنه وأهله ، وردّ عليه ماله ، وبارك له في كل ذلك ، فكان أضعافاً مضاعفة ، يقول الله تبارك وتعالى :

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ * » .

٤ ـ قصة يونس وحكمتها

وتأتي قصة يونس مقرونة بقصة أيوب مؤيدة لها في إثبات قدرة الله تعالى ولطفه بعباده وإغاثته لهم حين ينقطع الرجاء ويغشى اليأس القاتل والظلام الحالك ، وتنسدّ جميع المنافذ ، فلا نور ولا هواء ، ولا أمل ولا رجاء ، يدور رحى الموت قويةً سريعةً تطحن حبّة الحياة ناعمةً دقيقةً .

هنالك تبرز يد القدرة الإلهية ، القوية القاهرة ، الرحيمة الحكيمة ، فتخرج هذا الإنسان الضعيف من أشداق الأسد الضاري والموت الفاتك ، فيخرج سليماً غير مخدوش ، كاملاً غير منقوص ،

كأنّما كان على فراشه في بيته ،محفوظاً بين أهله .

٥ ـ يونس بين قومه

وهذه قصة يونس : بعثه الله إلى أهل قرية « نينوا » فدعاهم إلى الله تعالى ، فأبوا عليه ، وتمادوا في كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرّقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ ، وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر

وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ؛ فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى :

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ * » .

٦ ـ يونس في بطن الحوت

وأما يونس ـ عليه السلام ـ فإنّه ذهب فركب مع قوم في سفينة ، فجنحت بهم ، وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفّفون منه ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها ، فوقعت عليه أيضاً فأبوا ، ثم

أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، قال الله تعالى :
« فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * » .
أي فوقعت عليه القرعة ، فقام يونس ـ عليه السلام ـ وتجرّد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه حوتاً يشق البحار حتى جاء فالْتَقَم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً[1] .

٧ ـ واستجاب الله دعاءه

فكان في ظلمة بطن الحوت ، في ظلمة البحر ، في ظلمة الليل ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فما أشدّ الظلام ! وما

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره .

أبعد السلام! ومكث ما شاء الله أن يمكث ثم أَلْهَمَهُ الله الكلمات التي تبدّد الظلمات وتكشف الكربات وتستنزل الرحمة من فوق سبع سماوات ، واسمع القرآن يحكي هذه القصة الغريبة الفريدة التي فيها سلوى لكل بائس ملهوف ، ويائس مضطرب قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت عليه نفسه ، ورأى عياناً أن لا ملجأ من الله إلا إليه .

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَّهَب مُغاضِباً فَظَنَّ اَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادى في الظُّلُمٰتِ اَنْ لَّا اِلٰه اِلَّا اَنْتَ سُبْحٰنَكَ إنِّي كُنْتُ مِن الظّٰلِمِيْنَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، ونَجَّيْنٰهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِيْنَ * » .

قصة سيِّدنا زكريَّا عليه السلام

١ ـ دعاء زكريا لولد صالح

ولون آخر من آلاء الله على عباده وآيات قدرته التي أحاطت بكل شيء ، تجلى في دعاء زكريا لولد صالح ، رضي ، برّ ، تقي ، يرثه ويرث من آل يعقوب ، ويقوم بالدعوة إلى الله ، وذلك حين تقدمت به السنّ ، ووهن منه العظم ، ولج به الشيب ، وانقطع الرجاء من أن تلد زوجه ، فأجاب الله تعالى دعاءه وكذب ظنون الناس ، وأبطل التجارب القديمة ، فرزقه ولداً راشداً ، بكّرَ به النبوغ

والحكمة ، والحلم والعلم ، والكتاب في الصغر ، وخص بالحنان والصلاح والتقوى والبر بالوالدين ، والرقة ولين الكنف وخفض الجناح ، وربط الله على قلب زكريا ، وأراه آيات تدل على قدرة الله الواسعة ، وأنه يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء ، وأراه تصرفه في خلقه وفي أعضاء جسمه يحرك ما يشاء ويعطل ما يشاء ، وتحقق له أن الكون كله بيده ، يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويرزق من يشاء بغير حساب .

٢ ـ نذر امرأة عمران

وقد نذرت امرأة عمران من أسرة

سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ وكانت امرأة صالحة تحب الله وتحب دينه ـ أنها إذا ولدت ذكراً تهب هذا الولد لله لخدمة دينه ، وسألت الله أن يتقبل هذا الولد وينفع به دينه وعباده ، وأن يكون داعياً إلى الله وإماماً من أئمة الهدى .

٣ ـ قالت رب إني وضعتها أنثى

وأرادت المرأة الصالحة أمراً وأراد الله أمراً ، والله أعلم بمصلحة عباده ، فإذا هي تلد أنثى ، فتحزن لذلك وتغشاها الكآبة ، ولكن الوليدة لم تكن ككل أنثى ، بل كانت أقوى على العبادة ، وأعلى همة في الطاعات والخيرات من كثير من الفتيان ،

وإذا قدر الله ـ لحكمة يعلمها ـ أن تكون أنثى ، والنبوة لا يضطلع بأعبائها إلاَّ الرِّجال ، فقد قدّر الله أن تكون أماً لنبي صالح يكون له شأن :

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰنَ : رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإِنِّي أُعِيْذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيْمِ * » .

٤ ـ عناية الله بالفتاة الصالحة

وكانت في كفالة سيدنا زكريا لمكانتها

منه ، وفي رعاية الله تعالى ، فكان الله يكرمها بالأثمار والفواكه في غير أوانها وفي غير مكانها ، تأكل منها ما تشاء وتهب منها ما تشاء :

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ : يٰمَرْيَمُ أَنّٰى لَكِ هٰذَا قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * » .

٥ ــ إلهاماً من الرب الرحيم

وألهم الله زكريا ، وهو نبي من الأنبياء ، ومن العقلاء الأذكياء ، أن من

يقدر على أن يكرم فتاةً صالحةً ، أخلصت أمها في النذر بها والدعاء لها ، وأخلصت هي في الطاعة والعبادة ، بفواكه سابقة لزمانها أو متأخرة عن أوانها ، يقدر أن يهب شيخاً قد طعن في السن وعلاه الشيب ، وأثر فيه الوهن ، ولداً قد انقطع منه الرجاء لعلو السنّ ، وعقر الزوج ، وجرت العادة أن لا يولد لرجل في هذه الحال .

فجاشت نفسه ، وعلت همته ، وانتعش الأمل ، وقويت الثقة بالربّ ، ففاض لسانه بدعاء أمّنت عليه الملائكة وتحركت به رحمة الله ، وكان كله إلهاماً من الرب الرحيم ، وتقديراً من العزيز

العليم :

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ : رَبِّ هَبْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً اِنَّكَ سَمِيْعُ الدُّعَاءِ * » .

٦ ـ بشارة ولد

وأجاب الله دعاءه ، وتوجهت إليه البشارة بولد صالح قرب زمان ولادته .

وخلق الإنسان من عجل ، فطلب أمارةً على إمكان هذا الحدث الكبير وقرب ظهوره ، فقال : « رَبِّ اجْعَلْ لِّي اٰيَةً قَالَ : اٰيَتُكَ اَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَةَ اَيَّام اِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَّسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْاِبْكَار * » . فالقادر

الذي يستطيع أن يسلب خواصّ الأشياء ؛ فيجعل اللسان الناطق أبكم ، لا يستطيع أن يتحرك بكلمة ، يستطيع أن يُودع ما شاء من مخلوقاته ما شاء من خواصّ ، والقويّ الذي يستطيع أن يمنع يستطيع أن يُعطي .

٧ ـ آيات الله وقدرته

وظهرت آيات الله وقدرته في جسمه ثم في بيته وأسرته ، وولد يحيى ، فقرت به عينه ، واشتدّ به أزره ، وعاشت به دعوته .

واسمعوا القرآن يحكي هذه القصة تارةً في إيجاز وطوراً في تفصيل ، فيقول :

« وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَّأَنْتَ خَيْرُ الْوٰرِثِيْنَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيٰى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسٰرِعُوْنَ فِي الْخَيْرٰتِ وَيَدْعُوْنَنَا رَغَباً وَّرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خٰشِعِيْنَ * » .

٨ ـ يحيى يضطلع بأعباء الدعوة

ويولد يحيى فيكون قرة عين لأبويه ، وخليفة لوالده العظيم ، فيضطلع بأعباء الدعوة إلى الله والدين الخالص ، وتظهر فيه آثار النجابة منذ الصغر ، فيقبل على العلم بشغف وهو غلام ، ويتحلى بالصلاح والتقوى وهو شاب ، ويمتاز عن أقرانه في الحب والحنان ، والبر بالأبوين يُشار

في ذلك إليه بالبنان ، يقول الله تعالى مخاطباً له :

« يَيَحْيَى خُذِ الْكِتَبِ بِقُوَّةٍ وَءاتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَاناً مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا * وَسَلَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا * » .

قصة سيدنا عيسى بن مريم
عليه الصلاة والسلام

١ ـ قصة خارقة للعادة

ويجيء دور سيدنا عيسى ، وهو آخر الرسل ، قبل نبينا محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي قصة تجلّت فيها إرادة الله القاهرة ، وقدرة الله المطلقة ، وحكمة الله الدقيقة ، فأمره كله خارق للعادة ، وولادته خارقة للعادة ، حارت فيها الألباب ، ونُسخت فيها القوانين الطبيعة ، وشقَّ الإيمان بها والتصديق لها على من آمن بالقوانين الطبيعية كإله

لا يزول ولا يحول ، وآمن بالتجربة والمشاهدة ، وبأحكام الطب والطبيعة كناموس لا يتغير ولا يتبدّل ، وجهل قدرة الله التي أحاطت بكل شيء ، وغلبت على كل شيء ، وإرادته التي لا يحول دونها شيء : « اِنَّمَا اَمْرُهُ اِذَا اَرَادَ شَيْئاً اَنْ يَّقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ * » .

وهان هذا الإيمان على من آمن بالله كإله قادر مريد ، خالق صانع ، « هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْاَسْمَآءُ الْحُسْنٰى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ * » .

وآمن بخلق آدم من ماء وطين ، ومن غير أم وأب ، وولادةٌ من أم من

غير أب أهون وأيسر للتصديق من ولادة من غير أم وأب ، لذلك يقول الله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيْسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُوْنُ * » .

٢ ـ أمر كله عجب

وأمر سيدنا عيسى كله عجب ، وقد كانت ولادته في عصر بلغت فيه « يونان » أوجها في العلوم العقلية والرياضيّة ، وكانت للطب دولة وصولة .

٣ ـ خضوع اليهود للأسباب الظاهرة

وخضع اليهود ـ وهم أمة كثر فيها الأنبياء ـ للعلوم السائدة في عصرهم ،

واشتهر فيهم إنكار الروح وما يتصل بها ، واعتادوا أن يفسروا كل ما يرونه تفسيراً ماديّاً ، فلا وجود لشيء عندهم ولا إمكان لحادث إلا بالسَّبب والعلة ، فكانت المعجزات التي أكرم الله بها سيدنا عيسى علاجاً للعقل الماديّ الضيق ، وحاجة العصر ونداء الزّمان .

وأمعن اليهود في الوقوف عند الظاهر والتمسك بالقشور دون اللباب ، والتشبّث بالمظاهر دون الحقيقة ، وغلوا في تقديس العنصر ، والدم ، وفي حب المال والمادّة ، وانهمكوا في الحياة انهماكاً زائداً ، وقست قلوبهم ، وجفت طبائعهم ، فلا يرقون للضعيف ، ولا يعطفون على

الفقير ، ويعاملون من لا يجري في عروقه الذم الإسرائيلي معاملة الحيوانات والكلاب أو الجمادات التي لا روح فيها ، ويخضعون للأقوياء الأغنياء ، ويتجبّرون على الصغار الفقراء ، ويقسون عند القدرة ، ويلينون عند العجز ، قد ولّدت فيهم حياة الذل والعبودية التي عاشوها في الحكم الروماني الذي دام مدة طويلة في سوريا وفلسطين ، النفاق والخنوع ، والتحيّل والدهاء ، واللجوء إلى المؤامرة والسريّة .

٤ ــ استخفاف وتمرّد

وولّد فيهم الاستخفاف بالأنبياء والاجتراء عليهم ، حتى بالقتل ، والتعامل

بالرّبا ، والعبث بالتعاليم الدينية ، الغلظة والجفاف ، وضعف العاطفة الإنسانية ، وتجرّدت قلوب كثير منهم من حبّ الله الخالص ، والرحمة على الإنسان ـ مهما كان أصله وفصله ـ واحترام الإنسانية ، وكادوا ينسون معاني المؤاساة والمساواة والبرّ والكرم ، وكانوا يؤمنون بالنبوءات والرسالات ، وقد كثرت فيهم الأنبياء ، وزخرت صحفهم بأخبارهم ، ولكنهم قد أصبحوا في الزمن الأخير لا يؤمنون إلا بما وافق هواهم ، وأيّدهم في سيرتهم رأخلاقهم ، أما من انتقدهم وحاسبهم ودعاهم إلى الدين الصحيح ، والحق الصريح ، وإصلاح الحال ، عادوه

وحاربوه ، وكانت عندهم جراءة علَى البهت والافتراء ، وكتمان الحق ، وشهادة الزور .

٥ ـ نعمة الله على بني إسرائيل

وكانوا أمة تمتاز عن الأمم المعاصرة لهم ، بعقيدة التوحيد ، وذلك سرّ تفضيلهم على غيرهم حينئذ ، وقد قال الله تعالى :

« يٰبَنِيٓ إِسْرَآءِيْلَ اذْكُرُوْا نِعْمَتِيَ الَّتِيْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِيْنَ ۞ » .

٦ ـ نكران للجميل

ولكن تسربت إليهم بحكم الاختلاط

ومجاورة الشعوب المشركة الوثنية ، وبطول العهد بتعاليم الأنبياء ، عقائد زائفة ، وعادات جاهلية ، وقد عبدوا العجل في مصر ، وبالغوا في تقديس عُزير وتعظيمه ، حتى تخطّوا به حدود البشرية ، وبلغت بهم الوقاحة إلى أن نسبوا بعض أعمال الشرك والوثنية ، وأعمال السحر والكفر ، والأفعال الشنيعة ، إلى بعض الأنبياء ، ولم يتّقوا الله فيهم .

٧ ـ زهو وادلال

وكانوا رغم كل ذلك شديدي الإدلال بالنسب ، شديدي الاعتماد على الأماني والأحلام ، ،يقولون : « نحن

أبناء الله وأحباؤه » . ويقولون : « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَّعْدُوْدَةً » .

٨ ـ ولادة المسيح تتحدى المحسوس المعروف

وكانت ولادة المسيح وحياته ودعوته ومعيشته تحدياً لكل ذلك ، تحدياً للمحسوس المقرّر ، تحدياً للأعراف الشائعة ، والعادات المتبعة ، والقوانين المرسومة ، والمثل العليا التي يؤمن بها اليهود ، والغايات التي يتنافسون فيها ، ويتقاتلون عليها ؛ فولد من طريقة غير مألوفة ، وكلَّم الناس في المهد ، ونشأ في أحضان أم فقيرة متبتلة ، وعاش في جوّ مليء بالطعن والقدح ، بعيد عن

مظاهر العظمة والغنى ، يجالس الفقراء ، ويؤاكلهم ، ويحنو عليهم ، ويواسي الضعفاء والغرباء ، ولا يفرق بين فقير وغني ، وحاكم ومحكوم ، وشريف ووضيع .

٩ ـ معجزات المسيح

وأكرمه الله بالنبوة والوحي ، وآتاه الإنجيل ، وأيّده بروح القدس ، والمعجزات الباهرة ، يشفي الله به المرضى الذين عجز عن مداواتهم الأطباء ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، ويخلق للناس من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وينبىء

بما يأكله الناس ويدّخرونه في بيوتهم .

فيعيد بكل ذلك الثقة بما جاء في التوراة من خبر معجزات الرسل ، وأخبار القدرة الإلهية ، ويجدّد الإيمان بها ، ويكذّب العبادة للحسّ والتجربة ، فقام الذين ينكرون سعة القدرة الإلهية ، وقوة الإرادة الربّانية ، فقرّروا أن لا جديد وأن لا مزيد فيما علموه وشاهدوه .

١٠ ـ دعوته إلى الدين وتكذيبه اليهود

وكذّب اليهود في كثير ممّا تخيّلوه وغلوا فيه ، وحرّموا ما أحلّه الله ، وأحلّوا ما حرّمه الله ، فقام يدعوهم إلى روح الدين ولبابه ، وأصله وحقيقته ، والحبّ لله

حبّاً يغلب على كل حبّ ، والرحمة على الإنسانية واحترامها ، والمواساة للفقراء ، ويدعوهم إلى التوحيد الخالص ، ورفض كل ما دخل على دين الأنبياء من عادات جاهلية ، وعقائد باطلة .

١١ ـ اليهود ينصبون له الحرب

وشق كل ذلك على اليهود ، ونصبوا له الحرب ، ورموه عن قوس واحدة ، ورشقوه بالتهم والقذائف ، وتناولوه بالسب القبيح والقول البذيء ، وتناولوا أمه مريم البتول بالقذف والطعن ، وعاكسوه وطاردوه ، وأهاجوا له الأوباش ، وسدوا في وجهه الطرق .

١٢ ـ قصة عيسى في القرآن

ثم أرادوا قتله والتخلّص منه ، فحماه الله وردّ كيدهم عليهم ، ورفعه إليه وكرّمه ، اقرؤوا قصته في القرآن :

« إِذْ قَالَتِ الْمَلٰئِكَةُ يٰمَرْيَمُ اِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيْهاً فِي الدُّنْيَا والْاٰخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَّمِنَ الصّٰلِحِيْنَ * قَالَتْ : ربِّ اَنّٰى يَكُوْنُ لِيْ وَلَدٌ وَّلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذٰلِكَ اللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذا قَضٰى أَمْراً فَاِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرٰتَ وَالْاِنْجِيْلَ * وَرَسُوْلاً اِلٰى بَنِيْٓ اِسْرَآئِيْلَ * اَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِاٰيَةٍ

مِّنْ رَّبِّكُمْ اَنِّي اَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّيْنِ
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُوْنُ طَيْراً باِذْنِ
اللهِ واُبْرِىءُ الْاَكْمَهَ وَالْاَبْرَصَ واُحْيِ
الْمَوْتَى بِاِذْنِ اللهِ وأنبئكم بمَا تَأْكُلُوْن
وَمَا تَدَّخِرُوْنَ فِي بُيُوْتِكُمْ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ
لَاٰيَةً لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ * وَمُصَدِّقاً
لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرٰتِ وَلِاُحِلَّ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وجِئْتُكُمْ بِاٰيَةٍ مِّنْ
رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوْا اللهَ وَاَطِيْعُوْنِ * اِنَّ اللهَ
رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه هٰذا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيْمٌ * فَلَمَّآ اَحَسَّ عِيْسٰى مِنْهُمُ الْكُفْرَ
قَالَ : مَنْ اَنْصَارِيٓ اِلَى اللهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّوْنَ نَحْنُ اَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ
وَاشْهَدْ بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ * رَبَّنَآ امَنَّا بِمَآ اَنْزَلْتَ

وَاتَّبَعْنَا الرَّسُوْلَ فَاكْتُبْنَامَعَ الشّٰهِدِيْنَ *
وَمَكَرُوْا وَمَكَرَ اللّٰهُ وَاللّٰهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ * ».
إِذْ قَالَ اللّٰهُ : يٰعِيْسٰىٓ اِنِّي مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ
اِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَجَاعِلُ
الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْكَ فَوْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْآ اِلٰى يَوْمِ
القِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
فِيْمَا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُوْنَ * فَأَمَّا الَّذِيْنَ
كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً فِي الدُّنْيَا
وَالْاٰخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نّٰصِرِيْنَ * وَاَمَّا
الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوْا الصّٰلِحٰتِ فَيُوَفِّيْهِمْ
أُجُوْرَهُمْ وَاللّٰهُ لَا يُحِبُّ الظّٰلِمِيْنَ * ذٰلِكَ
نَتْلُوْهُ عَلَيْكَ مِنَ الْاٰيٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيْمِ *
اِنَّ مَثَلَ عِيْسٰى عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُوْنُ *

اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّنَ الْمُمْتَرِيْنَ * » .

١٣ ـ سيرته ودعوته في القرآن

واقرؤوا وصفه تعالى لسيرته ودعوته ، في قوله :

« قَالَ : اِنِّي عَبْدُ اللهِ اٰتٰنِيَ الْكِتٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبٰرَكاً اَيْنَ مَا كُنْتُ وَاَوْصٰنِي بالصَّلٰوةِ والزَّكٰوةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِيْ جَبّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلاٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ اَمُوْتُ وَيَوْمَ اُبْعَثُ حَيًّا * » .

١٤ ـ صراع قديم

ووقع لسيدنا عيسى ما وقع للأنبياء قبله ، فابتعد عنه الرؤساء والزعماء ،

وهجره الأغنياء والأقوياء ، ورأوا في الإيمانِ به واتباعه غضاضةً وعيباً ، وشق عليهم التنازل عما كانوا عليه من رياسة وزعامة وامتياز وسيادة ، وصدق قول الله تعالى :

« وَمَآ اَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوْهَآ اِنَّا بِمَا اُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰفِرُوْنَ * وَقَالُوْا : نَحْنُ اَكْثَرُ اَمْوَالاً وَّاَوْلَاداً ، وَّمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِيْنَ * » .

١٥ ـ إيمان عامة الناس وفقرائهم

ولما يئس عيسى منهم ، وشاهد فيهم العناد والكفر ، ورأى أنهم قد جحدوا بما جاء به من آيات بينات ومعجزات باهرات استيقنتها أنفسهم ، واستصغروه

لأنه لم يكن صاحب حول وطول ، أقبل على عامة الناس وفقرائهم ، وقد لانت قلوبهم ، وصفت نفوسهم ، لأنهم يأكلون بكدٍّ يمينهم وعرق جبينهم ، لا يتفاخرون بنسب ، ولا يتطاولون بجاه ومنصب ، فآمنت منهم طائفة ، فيها القصارون ، وفيها صيادو الأسماك ، وفيها أهل الحرف والمهن .

١٦ ـ نحن أنصار الله

فآمنوا بالمسيح والتفّوا حوله ووضعوا أيديهم في يده وقالوا : « نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » . يقول الله تعالى :

« فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ :

مَنْ اَنْصَارِي اِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّوْنَ : نَحْنُ اَنْصَارُ اللهِ اٰمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ * رَبَّنَآ اٰمَنَّا بِمَآ اَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُوْلَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّٰهِدِيْنَ * » .

١٧ ـ سياحة ودعوة

وكان سيدنا عيسى يقضي أكثر أوقاته في السياحة ، والانتقال من مكان إلى مكان ، يدعو بني إسرائيل إلى الله ويهدي خرافهم الضالة إلى ربها وسيّدها ويتفق له في هذه الجولات والرحلات اليسر والعسر ، والضيق والرخاء ، ويتحمل ذلك صابراً ، ويقبل هذا شاكراً ، ويصبر على الجوع ، ويجتزىء بما يسد الرمق .

١٨ ـ الحواريون يطلبون مائدة من السماء

أما الحواريون فلم يكونوا بمنزلته من الصبر والجلد والتقشف والزهادة ، وأصابهم شيء من ذلك ، فطلبوا من سيدنا عيسى أن يسأل الله أن ينزل لهم مائدةً من السماء يأكلون منها ويشبعون بعد جوع وينعمون بعد عناء .

١٩ ـ سوء أدب

ولم يكونوا متأدبين في سؤالهم ؛ فقالوا : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ » . ولم يعجب عيسى سؤالهم ، وكره الأسلوب الذي خاطبوه به ، والأنبياء جميعاً يطالبون أممهم

بالإيمان بالغيب ، ويكلفونها إياه ، وليست المعجزات مخاريق يسلى بها الأطفال ويلهى بها الأغمار ، إنما هي آيات من الله يظهرها على أيدي أنبيائه حين يشاء ، وتقوم بها حجة الله على العباد ، فلا يمهلون بعد ظهورها وإنكارها .

٢٠ ـ تحذير قومه من سوء العاقبة

لذلك خاف سيدنا عيسى عليهم ، وحذّرهم من سوء العاقبة ، ونهاهم عن امتحان الله تعالى ، فهوأعلى وأجل من ذلك .

٢١ ـ إلحاح وإصرار

ولكن الحواريين تشبثوا بسؤالهم ، وذكروا أنّهم جادّون في هذا السؤال ،

لا يقصدون امتحاناً إنما يريدون اطمئناناً ، وليكون ذلك ذكرى للأجيال القادمة ، وقصة تحكى وتروى على مر الأيام ، فتكون دليلاً على صدق هذا الدين ومنزلة المؤمنين الأولين والحواريين الصادقين .

٢٢ ـ القرآن يحكي القصة

ودعوا القرآن يحكي هذه القصة :

« إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِيْنَ * قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَّكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَٰلَمِيْنَ * » .

٢٣ ـ اليهود يحاولون التخلص من سيدنا عيسى

وعيل صبر اليهود ، وفاضت كأس عدائهم وعنادهم ، فأرادوا التخلّص من سيدنا عيسى ، فرفعوا قضيته إلى الحاكم الرومي وقالوا : إنه رجل ثائر فوضوي ، مرق من ديننا ، واستهوى شبابنا ، ففتنوا

به ، وفرّق أمرنا ، وسفه أحلامنا وشغل بالنا .

٣٤ ـ أسلوب الناقمين والسياسيين

وهو خطر على الدولة ، لا يخضع لنظام ، ولا يتقيد بقانون ، ولا يعظم عظيماً ، ولا يقدس قديماً ، وهو رجل ثوري ، إذا لم يكف شره فإنه يتفاقم ، ولا تستصغر الشرارة مهما كانت تافهةً .

٣٥ ـ مكر ودهاء

وكان كلاماً مملوءاً بالمكر والدهاء ، مصبوغاً بالصبغة السياسية ، وكانوا يعرفون أن الجانب الديني لا يثير الحكام ولا يهيجهم ، فقد كان من سياستهم أن لا

يتدخلوا في أمور اليهود الدينية ، ولذلك خلطوا الكلام بالسياسة .

٢٦ ـ مشكلة

وكان من الصعب أن يتحقق الحكام الأجانب المشركون حقيقة الأمر ، ويعرفوا أغراض اليهود ، وسبب عدائهم للمسيح ، وكانوا في شغل شاغل عن ذلك بالأمور الإداريّة ، ولكن اشتد إلحاح اليهود ، وطال ترددهم إليهم ، فأرادوا التخلص من هذه القضية التي أصبحت حديث البلد .

٢٧ ـ سيدنا المسيح في المحكمة

وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر

ليلة السبت ، وكان اليهود لا يعملون شيئاً يوم السبت ، وكان يوم عطلة وكف عن العمل ، فكانوا حريصين كل الحرص على أن يصدر الحكم قبل أن تغرب شمس يوم الجمعة ، ويستريحوا من أمر المسيح ، فيناموا هادئي البال ، ويصبحوا ناعمي البال لا يزعجهم شيء .

وقد ضاق الحاكم بالقضية ذرعاً ، وليست له فيها رغبة ولا لأمته فيها مصلحة ، وقد احتشد اليهود لسماع الحكم ، وهم بين صائح وهاتف ، ومتندّر ومتهكّم ، والحاكم متضايق والوقت قصير ، والشمس قد مالت للغروب ، فأصدر الحكم عليه بالقتل صلباً .

٢٨ ـ القانون الجنائي في ذلك العصر

وكان القانون الجنائي في ذلك العصر يوجب أن يحمل المحكوم عليه بالشنق ، صليبه الذي يصلب عليه ، وكان المشنق بعيداً كما هي العادة في البلاد المتمدنة ، وكان الجمع حاشداً يتساقط بعضه على بعض ، وكان رجال الشرطة ـ وأكثرهم من الأجانب ـ مأمورين موظفين لا رغبة لهم في هذه القضية ، وكان الإسرائيليون أشباهاً عندهم يلتبس عليهم أمرهم ، فلا يميزون بينهم ، شأن الأجانب في نظر الأجانب ، وكان الوقت مساءً قد مدّ الظلام رواقه ، وكان بعض اليهود والمتحمسين السفهاء من الشباب ينهالون

على السيد المسيح ، ويتدافعون عليه ، يسبونه ، ويعيرونه ، ويريدون إيذاءه وإهانته .

٢٩ ـ عيسى يتحمل الأذى

وكان السيد المسيح لاغباً ، قد أضناه الجهد ، وطول الوقوف في المحكمة وتحمّل الأذى ، وكان الصليب ثقيلاً ، وقد كلف حمله ، فكان لا يستطيع أن يسرع في المشي .

٣٠ ـ تدبير إلهي

وهنا أمر الشرطي الموكل به شابّاً إسرائيلياً بحمل العود ، وكان أشد زملائه

حماسة وأكبرهم سفاهة ، وأحرصهم على إيذاء السيد المسيح ومبادرةً إليه ، حتى ينتهي الأمر سريعاً ، ويتخلص من هذه المسؤولية المرهقة .

٣١ ـ ولكن شبه لهم

وهكذا وصل الموكب إلى باب المشنق ، فتقدم شرطة المشنق ، وتسلموا الأمر من الشرطة المدنيين ، ورأوا الشابّ يحمل الصليب ، واختلط الحابل بالنابل ، وكثر الضجيج ، فأخذوا بيد الشاب الحامل للصليب ، وهم لا يشكون في أنه هو المحكوم عليه بالصلب ، وهو يصيح ، ويضجّ ، ويعلن براءته وأنه لا شأن له

بالحكم والصلب ، وإنما كلف حمل العود سخرةً وظلماً ، وشرطة المشنق لا يلتفتون إلى ذلك ، ولا يفهمون لغته ، لأنهم من الروم واليونان الأمة الحاكمة .

٣٢ ـ تنفيذ حكم

وكل مجرم يتنصّل من جريمته ، وكل مجرم له صياح وعويل ، وأخذوه ونفّذوا فيه الحكم ، واليهود واقفون على بعد ، والدنيا ليل وظلام ، وهم يظنون كل الظن أن المصلوب هو المسيح[١] .

---

(١) استندنا في تفاصيل هذه القصة« والملابسات والأجواء التي أحاطت بها إلى الوثائق المسيحية التاريخية والقانونية التي ظهرت ودوّنت في العصر الأخير .

٣٣ ـ رفع عيسى إلى السماء

أما سيدنا عيسى بن مريم فقد نجّاه الله تعالى من كيد اليهود ورفعه إليه مكرماً مطهراً من الذين كفروا .

٣٤ ـ القرآن يتحدث عن القصة

وذلك قوله تعالى وهو يتحدث عن اليهود :

« وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوْهُ وَمَا صَلَبُوْهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِيْنَ اخْتَلَفُوْا فِيْهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوْهُ يَقِيْناً * بَلْ

رَفَعَهُ اللّٰهُ اِلَيْهِ وَكَانَ اللّٰهُ عَزِيْزاً حَكِيْماً * » .

وهو في السماء كما يريده اللّٰهُ تعالى ، وهو القادر على كل شيء ، وقد كانت ولادته عجباً . وحياته ، وأمره .... ، من أوله إلى آخره عجبٌ خارق للعادة مثبت للقدرة الإلهية المطلقة .

٣٥ ـ نزول عيسى قبل القيامة

وسينزل من السماء حين يريده الله ، ويقيم الحجة على من فرطوا فيه وأفرطوا من اليهود والنصارى ، وينصر الحق ، ويكبت أهل الباطل ، كما أخبر به نبيّنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووردت به الأخبار الصحيحة ، والأحاديث المتواترة ،

واعتقده المسلمون في كل عصر ، وصدق الله العظيم .

« وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا * » .

٣٦ ـ بشارته ببعثة سيدنا محمد

(صلى الله عليه وسلم)

ولم يكمل سيدنا المسيح مهمته في الدعوة لشدة محاربة اليهود وكيدهم له ، وضعفه وقلة أنصاره ، فودّع الناس ، وامتثل أمر ربّه ، وبشّر الناس برسول يأتي من بعده يكمل ما بدأه ، ويعمّم ما خصّصه ، وبه تتمّ نعمة الله على عباده ،

وتقوم حجته على خلقه : « وَإِذْ قَالَ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَم يٰبَنِيْ إِسْرَآئِيْلَ إِنِّي رَسُوْلُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرٰتِ وَمُبَشِّراً بِرَسُوْلٍ يَّأْتِيْ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » .

٣٧ ـ من التوحيد الخالص إلى عقيدة غامضة

ومن غرائب تأريخ الأديان ، ومما تدمع له العيون ، وتذوب له القلوب ، أنه تحولت دعوة المسيح إلى التوحيد الخالص والدين السهل السائغ البعيد عن كل غموض وتعقيد ، وتحريف وتأويل بعيد ، والدعوة إلى عبادة الله وحده ،

والسؤال منه ، والالتجاء إليه ، وحبه الخالص ، إلى عقيدة غامضة ، وفلسفة معقدة ، فغلا فيه أتباعه ، وأطروه إطراءً خرج به من حدود البشرية إلى حدود الألوهية ، فقالوا « : المسيح ابن الله » ، وقالوا : « اتخذ الله ولداً » وقالوا : « إن الله هو المسيح ابن مريم » وجعلوا من الإله الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، أسرة مؤلفة من ثلاث أعضاء ، كلهم إله ، فقالوا : الاب والابن وروح القدس ، واعتقدوا في مريم أم المسيح وعاملوها بما يبلغ بها إلى درجة التقديس والعبادة ، فقالوا : « أم الله » وشاعت لها تماثيل وصور في الكنائس ، يخضع لها النصارى باللجوء

والدعاء ، والنذر والانحناء ، وقد قال الله تعالى منكراً ما اعتقدوه ، مستبشعاً ما فعلوه .

« مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ اِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيْقَةٌ كَانَا يَأْكُلٰنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْاٰيٰتِ ، ثُمَّ انْظُرْ اَنّٰى يُؤْفَكُوْنَ * قُلْ : اَتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَّلَا نَفْعاً وَاللهِ هُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ * » .

٣٨ ـ عيسى يدعو إلى عبادة الله وحده

وقد دعا كغيره من الأنبياء إلى عبادة الله وحده ، فجاء من قوله في الإنجيل : « مكتوب للرب اِلـٰهك تسجد ، وله

وحده تعبد » (متى ٤ : ١٠) وقوله : « مكتوب للرّب اِلٰهك تسجد وله وحده تعبد » (لوقا ٤ : ٨) . وقد قال الله تعالى :

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُوْلَ لِلنَّاسِ كُوْنُوْا عِبَاداً لِّي مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلٰكِنْ كُوْنُوْا رَبَّانِيِّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُوْنَ الْكِتٰبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ اَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلٰئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ اَرْبَاباً اَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ اِذْ اَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ » .

٣٩ ــ القرآن يصرّح بدعوة عيسى

وقد نقل القرآن ــ وهو الكتاب المصدّق لما بين يديه والمهيمن عليه ــ من

إعلان سيدنا عيسى بالتوحيد الخالص والدعوة إليه ، في أسلوب صريح واضِح لا مزيد عليه :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا اِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيْحُ : يٰبَنِيْٓ اِسْرَآئِيْلَ اعْبُدُوْا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ اِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَاْوٰهُ النَّارُ وَمَا لِلظّٰلِمِيْنَ مِنْ اَنْصَارٍ * » .

٤٠ ـ منزلة التوحيد في دعوته

وقال في أسلوب جميل بليغ يتذوّقه كل من عرف منزلة التوحيد وسيرة الأنبياء والمرسلين ، وما طبعوا عليه من معرفة الله

تعالى والخضوع له . والرهبة منه :

« لَنْ يَّسْتَنْكِفَ الْمَسِيْحُ اَنْ يَّكُوْنَ عَبْداً لِلّٰهِ وَلَا الْمَلٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُوْنَ وَمَنْ يَّسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُ هُمْ اِلَيْهِ جَمِيْعاً * فَاَمَّا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ فَيُوَفِّيْهِمْ اُجُوْرَهُمْ وَيَزِيْدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَاَمَّا الَّذِيْنَ اسْتَنْكَفُوْا وَاسْتَكْبَرُوْا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً اَلِيْماً * وَّلَا يَجِدُوْنَ لَهُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلِيّاً وَّلَا نَصِيْراً * » .

٤١ ـ مشهد رائع من مشاهد القيامة

وقد صوّر القرآن في بلاغته وإعجازه مشهداً من مشاهد القيامة الرائعة يتبرّأ فيه سيدنا عيسى عمّا تقوّله الناس فيه ، وعاملوه

به ، ويوضح دعوته في قوة وصدق ، ويُدين في هذه القضية الغلاة من أمته ، وأنهم هم المسؤولون وحدهم عن هذه الجريمة ، اقرؤوا القرآن ، واستشعروا جلال الموقف وروعة المشهد : « وَإِذْ قَالَ اللهُ : يٰعِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُوْنِ اللهِ قَالَ : سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُوْنُ لِيٓ أَنْ أَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوْبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِيْ بِهِٓ أَنِ اعْبُدُوْا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيْداً مَّا دُمْتُ فِيْهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيْبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ

عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ * اِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَاِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَاِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَاِنَّكَ اَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ * قَالَ اللهُ هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنّٰتٌ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَآ اَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ * لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا فِيْهِنَّ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ * » .

٤٢ ـ من عقيدة غامضة إلى وثنية سافرة

وانتقل دعاة المسيحية إلى أوربا بدافع من عندهم [١] وقد شاعت فيها الوثنية

(١) لأن المسيح لم يأمرهم بذلك ، وقد صَرَّحَ بأنه أرسل لخراف إسرائيل الضالة .

السافرة من زمان ، وغاصت فيها إلى الأذقان ، فكان اليونان وثنيين ، وقد تصوّروا صفات الله في شكل آلهة شتى ، نحتوا لها تماثيل ، وبنوا لها معابد وهياكل ، فللرزق إله ، وللرحمة إله ، وللقهر إله ، وكانت رومية عريقة في الوثنية والتمسك بالخرافات ، وقد امتزجت الوثنية بلحمها ودمها ، وجرت منها مجرى الروح والدم ، وكان الرومان يعبدون آلهة شتى ، فلما وصلت إليهم النصرانية ، وتَنَصَّر قسطنطين الكبير سنة ٣٠٦ واحتضن الدين الجديد ، وتبنّاه وجعله دين الدولة الرسمي ، بدأت النصرانية تأخذ الشيء الكثير من العقائد الوثنية والتقاليد الرومية والفلسفة اليونانية ،

وتدنو إليها رويداً رويداً ، وصارت تفقد أصالتها النبويّة ، وبساطتها الشرقية ، وحماستها التوحيديّة ، ودخل فيها بعض المنافقين ، فطعّموها بعقائدهم القديمة ، وذوقهم الوثني ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلّى فيه النصرانيّة والوثنية سواءً بسواءٍ .

وكذلك سارت النصرانية الزاحفة الفاتحة على درب غير الدرب الذي سلك المسيح بها عليه ، ودعا إليه ، وكانت كسالك طريق يضلّ عن الطريق ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ في ظلام الليل فيواصل سيره على طريق لا يلتقي بالطريق الأول إلى الأخير .

ولهذه الحكمة الدقيقة التي لا يعرفها إلا من قرأ تاريخ هذه الديانة ، وصفهم الله بالضلال حين وصف اليهود بالمغضوبية ، فقال على لسان المسلمين :

« اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ * صِرَاطَ الَّذِيْنَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّيْنَ * » .

وكانت في ذلك مأساة لأوربّا ، ومأساة للإنسانية التي قادتها أوربّا زمناً طوِيْلاً ، ولا تزال مسيطرةً عليها ومتحكمة فيها . « ولله الأمر من قبل ومن بعد » .